

ملخص الرسالة

يمثل مشروع برهان غليون الفكري، واحد من أهم المشاريع الفكرية والسياسية التي أنتجها الفكر العربي المعاصر خلال العقود الأربعة الأخيرة من القرن العشرين، التي حاول من خلالها غليون الإجابة على سؤال النهضة الذي تم طرحه منذ أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، والذي بدأه كل من الطهطاوي، والأفغاني، ومحمد عبده، والكواكبي.. الخ. ورغم الإختلاف والتباين العميق بين المنطلقات المرجعية والإيديولوجيات المختلفة التي انطلقت منها مشاريع الإصلاح الفكري والسياسي، إلا أن هناك خيطا متصلا يخترق تلك المشاريع المختلفة ويتمثل في البحث الدؤوب عن المقومات التي تجعل العرب قادرين على إنجاز مشروع النهضة أسوة بباقي الشعوب والحضارات. ومن هذا المنطلق، فقد سعى الباحث لتقديم عرض موجز لتاريخ الفكر العربي الحديث والمعاصر في الفصل الأول من الرسالة، تناول من خلاله التيارات الفكرية والسياسية التي عاشتها المجتمعات العربية والمفاهيم الأساسية للحدثات (العقلانية، الدولة، العلمانية، الليبرالية) التي حاول المفكرون العرب توطينها في المجتمعات العربية بعد تطويعها للظروف والعوامل الثقافية والسياسية التي تمليها التطورات التاريخية للوطن العربي.

وفي الفصل الثاني تناول الباحث رؤية غليون لإشكالية الدول العربية التحديثية وما تمخض عن فشل تلك الدولة من صعود لحركات الإسلام السياسي، والحركات الطائفية، والأصوليات الدينية وتراجع كل من ثقافة العلمانية والثقافة السياسية الديمقراطية، حيث يرى غليون أن الإشكال الأساسي في السياسات الوطنية في البلاد العربية ناجم عن أن الدولة كتنظيم للسلطة وإدارة لها، تحتكر العملية السياسية كليا، بدل أن تمثل المركز الرئيسي لإنضاج القرارات وتجميعها وإعادة نشرها وتوزيعها على مجموع القوى الاجتماعية الفاعلة. فضعف الدولة العربية الحديثة ناجم عن ضعفها السياسي، أولاً؛ بسبب توظيفها كالدولة-الأداة عوضاً عن أن تكون الدولة-الأمة تجسد إرادة المواطن والمجتمع الحر، وبسبب ضعفها السيادي، ثانياً؛ وتحولها إلى دولة تابعة على الساحة الدولية، وافتقارها للعب دور مؤثر وفاعل، يزيد من شروط وفرص التقدم والنمو واستيعاب المكتسبات الحضارية، وانعدام الطابع الوطني أو القومي للدولة وافتقارها لقاعدة اجتماعية عريضة وثابتة وتاريخية، ثالثاً؛ مما زاد في عجزها عن الاستجابة للحاجات والمطالب الاجتماعية الوطنية، وفاقم من ضعفها الأخلاقي والسياسي.

وفي الفصل الثالث ناقش الباحث رؤية غليون لأحدى السبل الرئيسية للخروج من أزمة الدولة التحديثية وآفاتها المزمنة، والتي تتمثل في ضرورة بناء النظام السياسي الديمقراطي، بما يتضمنه من قواعد ثابتة وواضحة لتداول السلطة وتوزيعها وممارستها بطريقة سليمة. لكن غليون يرى، أنه لا يمكن الحديث عن أي نجاح للتجربة الديمقراطية في البلاد العربية، في ظل غياب عوامل التنمية الاقتصادية والاجتماعية، ودون توفر شكل من أشكال الاتحاد السياسي الإقليمي للدول العربية ووجود كتل اقتصادي-صناعي. كما أن تعزيز شروط الاستقرار السياسي وعقلية الحوار والتفاوض السلمي والمدني، وتأمين الموارد المادية والمعنوية لدعم المشاركة السياسية للأحزاب، إلى جانب إصلاح المؤسسات الرسمية وبناء العقيدة السياسية للجماعة الكلية أو الإجماع الوطني من خلال قيم عليا للمجتمع تلقى الإجماع من جانب جميع القوى والفئات المكونة للمجتمع. كما يحتاج نجاح التجربة الديمقراطية إلى ترسيخ مبدأ

التفكير من وجهة نظر المستقبل وتجاوز الماضي، لدى الرأي العام ولدى مختلف النخب الاجتماعية نفسها، كما يرى غليون، ضرورة بلورة سياسية جديدة تقوم على تطبيق مبدأ الصدق، والذي يعنى امتلاك الجرأة على الاعتراف بالفشل ومواجهة الواقع كما هو، وما لم يتم قبول هذا المبدأ فلن يكون من الممكن إصلاح العلاقة مع الجمهور والرأي العام، فكسب ثقة الجمهور وقناعاته بضرورة التغيير، هو الأهم في كل عملية تحول وإصلاح سياسي.

وفي الفصل الرابع يناقش الباحث مقارنة غليون لمسألة الهوية على المستويين الثقافي والسياسي، حيث يشير غليون إلى أن الشعوب العربية لا زالت تعيش أزمة هوية حادة؛ مما أصابها بالشك في صلاح الصورة التي صنعتها لنفسها والتي وجهت ممارستها وبدأت تشعر بضرورة إعادة النظر فيها. فموضوع الهوية ليس موضوع مصطنع، بل يدخل في صلب إعادة بناء العلاقات داخل المجموعات المختلفة الإثنية والقومية والمذهبية، بل ويتحكم موضوع الهوية في إعادة بناء الدول وتفككها وفي إعادة تشكيل الأقاليم وفي توزيع علاقات القوة في العالم وتكوين الفضاء الجيوسياسي العالمي، وبالتالي يتحول موضوع تحديد الهوية إلى موضوع صراع كبير داخل الدول نفسها وبين الجماعات المكونة لها وفي ما بين الدول والكتل الدولية. ولا يمكن الخروج من مأزق الهوية، كما يرى غليون، إلا بتحقيق النجاح في عمليتين مترابطتين: تحرير العروبة كمفهوم وصفي، أي كأصل وانتماء خام، من العروبة كما يجسدها هذا المشروع الأيديولوجي أو السياسي الذي أخفق أو فقد الأمل بالبقاء، وفي موازاة ذلك بلورة مشروع ثقافي سياسي جديد، يقدم للناس رؤية واضحة للمستقبل، وقيماً ومعايير أخلاقية فاعلة للتوجه الذاتي وبناء السلوك الإيجابي في المجتمع والعالم، وعلى أن يترافق ذلك مع مشروعين آخرين هما: التنمية والديمقراطية؛ فالتنمية والديمقراطية هي من أهم الديناميات وأقصر السبل لإنجاز عملية الاندماج الاجتماعي والتوحيد الوطني والقومي، وتكوين الأمة والهوية الوطنية.